اغاني الحُبّ
عند المصريّين القدماء

عبدالمنعم ابو بكر

يعتقد الكثيرون ان مصر القديمة حوت شعباً لا يفكر إلا في الموت ، يعيش ليعدّ نفسه لرحلة الدنيا الثانية، ويحياحياة كلها هموم لا تعرف المرح ولا ترنو الى التمتع بمباهجها. ولعلهم على حق في اعتقادهم هذا ، لانهم لا يعرفون عن الشعب المصري القديم الا ما يرونه منقوشاً او مرسوماً على جدران مقابره التي امتلأت بها جبّانات واسعة انتشرت في المناطق الأثرية المختلفة ، وهي نقوش تتحدث غالباً عن حياة ما بعد الموت وعن الضمانات المختلفة التي يجب على المصري ان يتزود بها قبل انتقاله الى تلك الحياة .

ولكن ليست هذه المقابر بنقوشها هي كل ما وصل الينا من المصريين القدماء ، اذ ان هناك مجموعة هائلة من اوراق البردي ومن اللخاف المختلفة دوّن عليها المصري القديم انواعاً شتى مما كان يجري في حياته اليومية . فهي تشمل رسائل رسمية، ووثائق قانونية ،وقصصاً تاريخية ، وطلاسم سحرية ، وترنيمات واناشيد دينية ، وكتباً كهنوتية مليئة بعبارات التقى والورع ، واقاصيص غرامية قصيرة ، واغاني الحب والحرب ، ونصائح تحضّ على حسن الخلق . وجملة القول ان فيها مثلاً من كل شيء مما يمكن ان يملأ حياة شعب استطاع ان يبلغ في تقدم حضارته ما بلغه هذا الشعب ، بل استطاع ان يدرج بحضارته منذ زمن غارق في القدم في مدارج التقدم وان يحلق بها في آفـــاق السبق والتفوق ، على حين كانت شعوب آسيا الغربية والجزر اليونانية لا تزال في جهالة البدائية . بل نكاد نؤكد ان هذه الشعوب لم تبلغ من الحضارة مبلغاً يمكن مقارنته بالحضارة المصرية إلا في عصر الدولة الحديثة ، أي في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، في حين يقع العصر الذهبي الاول لحضارة المصريين في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

وليس من شك في ان المركز الذي تشغله المرأة في اي مجتمع بشري دليـل على مدى التقدم الذي احرزه هذا المجتمع في حضارته . ولعل المجتمع البـابلي كان أقسى المجتمعات

المتحضرة على المرأة، كما كانت بابل مثلاً سيئاً في الانحلال والترف للعالم القديم باجمعه . وأهم ما يلفت النظر في حياة البابليين تلك العادة الغريبة التي تحتم على كل امرأة بابلية ان تجلس في هيكل الإلهة الزهرة مرة في حياتها على الاقل وان تضاجع رجلاً غريباً ؛ فاذا جلست امرأة في ركن من هذا الهيكل ، كان عليها ألا تعود الى منزلها حتى يلقي احـــد الغرباء قطعة من الفضة في حجرها ، ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فان المرأة لا يجوز لها ان ترفضها – فهذا الرفض يحرّمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة . وتسير المرأة وراء اول رجل يلقيها اليها، وليس من حقها ان ترفضه ايا كان، فاذا ما ضاجعته وتحللت مما عليها من واجب للآلهة عادت الى منزلها . وظلت الدعارة المقدسة عادة متبعة في بـــلاد بابل حتى الغاها قسطنطين حوالي عام ٣٢٥ ميلادية . ولست أشك ان ما ورد من نصوص مختلفة في قوانين بابل ، وخاصة في قانون حمورابي ، يدل بوضوح على المركز الاجتماعي الضئيل الذي وصلت اليه المرأة في المجتمع البابلي، الأمر الذي جعل الادب البابلي بل والاشوري خلواً تماماً من اغاني الحب . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان في وسع الرجل ان يطلق زوجته ولا يتطلب منه هذا اكثر من ردّ بانتها اليها وقوله لها: «لست زوجتي». اما اذا قالت هي له: « لست زوجي » ، فقد حقّ قتلها غرقاً .

أما في مصر فقد كان مركز المرأة المصرية القديمة أرفع من مركز المرأة عند كثير من الأمم في عصرنا هذا . ولشدّ ما دهش الرحالة اليونان من حرية المرأة في مصر واخـذوا يسخرون من الازواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم، ويدّعي احدهم ، وهو ديودور الصقلي ، ان طاعة الزوج لزوجته في وادي النيل كانت من الشروط التي تنصّ عليها عقود الزواج . وهذا ادعاء خاطىء ، والأمر لا يعدو الشعور بالفارق الكبير بين المرأة والمركز الكبير الذي تبوأته في المجتمع المصري ، وبين مركزها الضئيل في المجتمـــع الاغريقي . فالمرأة الاغريقية ، بل والاثينية بالذات ، كانت كمّاً مهملاً ؛ يدلنا على ذلك ما قيل عنها في الادب وما نالته من حقوق مدنية في القانون . فالمجتمع الاغريقي كان مجتمع رجال ، لم تلعب فيه المرأة اي دور؛ ونجد حوار افلاطون لا يجري الا بين الرجال. غير هذا، فالمنزل الاغريقي كان ينقسم الى قسمين احدهما مخصص فقط للنساء وكانت ابوابه يحكم اغلاقها ، كما حرّم على النساء ترك منازلهن إلا في حراسة شديدة ؛ وكان على الرجال شراء مستلزمات

منازلهم ، اما النساء فكن باستمرار قعيدات منازلهن . ويجدر بي هنا ان اكمل الصورة التي هيمنت على المجتمع الاغريقي الذي اهمل النساء كل الاهمال ، فأقول ان الحب واغانيه كانت غالباً بين الرجال والغلمان، وهو أمر استساغه الذوق الاغريقي واعترفت به قوانينه وكان مظهراً من مظاهر مجتمعهم .

أعود فأقول ان المرأة المصرية أحيطت بكل مظاهر الاحترام والتبجيل في المجتمع المصري، وكان المصري يحرص على ان تكون له زوجة شرعية واحدة ، يطلق عليها دائماً اسم « الزوجة المحبوبة » و « سيدة المنزل » . وكانت العلاقة بين الزوج وزوجته تصوَّر في جميع العصور مخلصة وفية : فهما يقفان الواحد منهما الى جانب الآخر، اويجلسان معاً على مقعد عريض وتلفّ المرأة ذراعها في رفق حول عنق زوجها ، او تضع يدها على احدى كتفيه ، او تتشابك ايديهما معاً . اكثر من هذا ، كان المجتمع المصري يميل الى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشيء؛ ودليلنا على ذلك ان نظام التوريث عامة كان يأتي عن طريق النساء لا الذكور ، فلم يكن الابن هو الذي يرث وانما يرث ابن كبرى البنات ، وكانت هذه العادة ثابتة قوية حتى ان «والد الام» كان يعتبر وصياً طبيعياً على الشاب الناشيء . وكان التقدير الذي يضمره الابن لأمه من عظم الشأن بحيث نجد كثيراً من مقابر الدولة القديمة تحوي امّ المتوفى ممثلة الى جانب زوجته على حين تهمل صورة والده في اغلب الاحيان . ولنذكر هنا الكلمات التي قالها احد الحكماء واسمه آني الى ابنه :

« يجب عليك الا تنسى امك وكل ما عملته من اجلك ، فاذا نسيتها فانها تستطيع ان تلومك وترفع اذرعها الى الله فيستمع نداءها . فهي قد حملتك طويلاً تحت القلب عبئاً ثقيلاً ، وبعد ان انتهت شهورك ولدتك ، ثم حملتك وكان ثديها طوال ثلاث سنوات في فمك ، وربتك وانشأتك دون ان تشمئز من قذارتك ، وبعد ان دخلت المدرسة لكي تأخذ دروساً في الكتابة بقيت ترعاك في كل يوم بالخبز والجعة » .

وبطبيعة الحال لم يكن عصر من العصور يخلو من النساء اللواتي لا عائل لهن يشملهن بالحماية . وهؤلاء النساء كن في الغالب يتألفن من اللواتي تركهن ازواجهن ، وممن ترملن، وكثيراً ما كانت الظروف القاسية تضطر بعضاً من هؤلاء النسوة لأن يجبن انحاء البلاد يتكسبن من اعراضهن . ولذلك كانت المرأة الغريبة دائماً مشتبهاً فيها ، وفي ذلك يقول الحكيم آني :

« احذر المرأة الاجنبية المجهولة في بلدتها ، لا توجه اليها نظرك ولا تحاول التعرف

عليها : انها مثل لجّة شاسعة عميقة مليئة بالتيارات ، ان المرأة الاجنبية تقول لك في كل يوم : اني جميلة ، وهي تقف بالقرب منك وتلقي عليك شباكهـــا . ما اشدها خطيئة تستحق الموت اذا استمع اليها الانسان . ولذلك فمن كان حكيما يتجنبها ويتخذ له في شبابه زوجة ، فان احسن شيء في الوجود هو بيت الانسان الخاص به » .

ولا شك ان ماكس مولر كان محقاً عندما قال : « ليس ثمة شعب قديم او حديث قـد رفع منزلة المرأة بمثل ما رفعها سكان وادي النيل » . ولكن – وقبل التحدث عن اغاني الحب الشائعة بين المصريين والتي وصلت الينا منها مجموعة كبيرة – علينا ان نتساءل : ماذا كانت المثل العليا للجمال عند المصريين في تلـك العصور المبكرة ؟ ان الصور الكثيرة التي خلدها الفنانون للمرأة المصرية تمثلها ممشوقة القوام، فارعة الطول، صدرها عال ، وارادفها ضامرة ، عنقها رفيع مرتفع ، ووجهها متطاول ، وانفها قليل البروز ، وعيناها بيضاوية

كبيرة ، تزججان بخطين من الكحل يلتقيان عند نهاية قفلة العين ويستمران في خط واحد الى ما يقرب من الاذن . اما الشعر فأملس داكن السواد ويميل قليلاً في سواده الى الزرقة. غير هذه الصفات المادية لجمال المرأة ، فقد تكونت عند المصريين صفات اخرى لجمالها المعنوي ؛ ومن اهم هذه الصفات ان يكون حديث المرأة حلواً كالعسل ، او ان شفتيها تتحدثان بعذوبة ، او انها لا تقول شيئاً اكثر مما يجب . وهناك سيدة عاشت حوالي القرن العشرين قبل الميلاد سجلت على لوحة حجرية عثر عليها في ابيدوس الكلمات الآتية عن نفسها :

« مدحتني الملكة من اجل جمال الكلمات التي تخرج من فمي ، ومدحني الملك من اجل الحقيقة التي انطق بها . ان فمي هو محط براعتي ، فاذا ذهبت الى بلاط الملك ادخله والجميع يثنون عليّ ، واتركه وعيون الناس تدلّ على شدة حبهم لي » .

ومن الطريف ان نذكر ما قاله المصريون عن ثلاث من ملكاتهم الشهيرات : قالوا عن تيّ الزوجة الجميلة للملك امنحوتب الثالث وامّ الملك اخناتون : « ان سعادة زوجها لا تقدّر عند سماعه صوتها » . وقالوا عن نفرتيتي زوجة اخناتون : « ان الناس يهللون طرباً عند سماعهم لصوتها » . وقالوا عن نفرتاري زوجة رمسيس الثاني : « اذا ما تحدثت ظهرت علامات السعادة على وجوه سامعيها ؛ ان الناس يحيون على سماع صوتها » .

غير ما قلت ، فهناك حقيقة ثابتة وهي ان حب الزهور والنباتات كان من اهم الاشياء عند المصريين القدماء ، فحيثما القى المرء بنظره الى الآثار وجد زهوراً : فباقات الزهر يقدمها الناس قرباناً للآلهة ، وتحاط التوابيت باكاليل الزهر ؛ وكانت زخارف المنازل تتكون من عقود الزهر ومضفوراته ، كما كانت تيجان الاعمدة تتخذ اشكال الزهور واوراقها . وقصارى القول ، لم يحدث ان ارتبطت مشاعر شعب بالطبيعة الطليقة كما ارتبطت مشاعر المصري القديم بالحديقة المنسقة وبالحقول المزروعة . فكانت الطبيعة مكان الحب له وكانت اشجارها الوارفة محل ثقة المحبين .

وهناك مجموعة من الاغاني تمثل لنا فتاة اضناها الحب ، تذهب يومياً الى الحقل وتتطلع سدى لرؤية « اخيها المحبوب » . ولأذكر هنا ان المصريين القدماء اطلقوا اسم « الاخ » على الحبيب و « الاخت » على الحبيبة ، ومن هنا حدث ذلك الخطأ الذي وقع فيه كثير

من المؤرخين بان المصري استساغ الزواج من الاخت ، في حين ان الوثائق الرسمية لم تذكر حادثاً واحداً لزواج اخ من اخته ، اللهم الا الملوك : وحجتهم في ذلك ان يحتفظوا بالدم الملكي المقدس في حدود الاسرة المالكة .

وهذه المجموعة الجميلة من اغاني الحب تجري على النحو التالي :

« يا حبيبي ، يا من احبه ،
يا من اخذ حبه عليّ كل حياتي ،
اسمع لي احدثك بما جرى لي :
ذهبت الى الحقل حيث تتجمع الطيور، ممسكة بيدٍ الفخّ وباليد الاخرى شباكَ الصيد وعصاة الرماية .
ورأيت اعداداً من الطيور الآتية من بلاد بونت
والتي تنزل على ارض مصر معطرة بالمرّ ،
ومن وصل منها اولاً خطف من يدي الطعم
وكانت رائحته من رائحة بونت ومخالبه مليئة بالبخور .
ولكن من اجلك ايها الحبيب ساطلق سراحه حتى اكون معك بمفردي .
سأجعلك تسمع نواح الطائر الجميل المعطر برائحة المرّ وانت بعيد عني وانا اقوم بتهيئة الفخّ .
ما احلى الذهاب للحقل لذلك الذي اضنى الحب قلبه » .

« صوت الاوزة ينوح ،
الاوزة التي خطفت الطعم ومسكها الفخّ.
ولكن حبك ألهاني وجعلني لا استطيع اطلاق سراحها .
سأفكّ الشباك ،
ولكن ماذا عساي اقول لامي ، وهي التي ارجع اليها كل يوم محملة بالطيور ؟
اقول لها : لم انصب شباكي ولكن شباك حبك صادتني » .

« سأذهب بعيداً عن الحبيب .
ولكن اذا فكرت في حبك وقف قلبي من داخل ضلوعي ، واضحى طعم الفطير

الحلو كالملح وطعم النبيذ المسكر مرّاً كمرارة الطيور ،
وقبلاتك فقط هي التي تستطيع تحريك قلبي واحيائه » .

« يا جميل ، ان امنيتي ان ارعى شؤونك كرّبة منزلك وان تضع ذراعك على ذراعي وان تأخذ من حبي كل ما يطيب لك .
اني اتحدث الى قلبي الذي انتقل الى جسمك ، ابثّه شجون حبيبة كل املها ان يأتيها اخوها هذه الليلة ، والا فسأكون كمن يرقد في القبر .
الست انت الصحة والحياة ؟ فان قلبي الذي يبحث عنك يهتف كلما عشت ويفرح كلما وجدك في صحة جيدة » .

« صوت الحمامة يقول : ان النور يعمّ الارض ، والى اين انت ذاهبة ؟
ما هذا ايتها الحمامة ؟ لا تحاولي ابعادي عن طريقي : لقد وجدت حبيبي في حجرته .
ان قلبي مبتهج .
وقال كل منا : لن اتحول عنك .
ويد كل منا في يد الآخر .
سأخرج الى النزهة ، ويجب ان تكوني معي في كل الاماكن الجميلة .
لقد جعلني سيدة لكل الفتيات ، ولن يحاول ان يوجع قلبي » .

« اجلس وعيناي على الباب الخارجي ،
انتظر لعل حبيبي يحضر ، ان عينيّ تنظران الى الطريق واذنيّ تسمعان الخطوات .
اني انتظر المحبوب ، وحبي له هو كل ما يشغل بالي
لان قلبي لا يبوح بحبي الا له .
هل يرسل لي رسولاً ، سريع الخطوات ؟ اذا دخل لا يلبث ان يخرج ، ليقول لي انه يسخر مني .
قل يا حبيبي انك وجدت أخرى غيري ، تبدو أجمل مني في عينيك » .

« ان قلبي ينصهر تحت حبك .

وحضرت اليك مسرعة لابحث عنك ، ولم اكن قد اتممت تصفيف نصف شعري . ولكن يا حبيبي اذا هجرتني اكملت تصفيف بقية شعري وذهبت الى اليمّ وتنتهي حياتي في لحظة واحدة » .

بالاضافة الى هذه الاغنية الطويلة ، هناك عدة اغنيات قصيرة منها هاتان الاغنيتان :

« سبعة ايام مرت دون رؤية الحبيب ،
وداهمني المرض
واصبح قلبي ثقيلاً
ولم اعرف الدنيا من حولي .
واسرع الاطباء اليّ ،
ولكن دواءهم لم يشف علتي .
واحتار الاطباء ولم يعرف احد منهم مرضي .
ولكن لما جاءني خبر انها حاضرة بدأت تدبّ الحياة في جسمي :
فاسمها هو الذي يهزني ، وذهاب ومجيء رسلها
هو الذي يحفظ على قلبي حياته .
حبيبتي هي احسن عندي من كل دواء
وهي لديّ اهم من كل كتب الاطباء .
ان دخولها عليّ مثل التميمة ،
وعندما اراها سرعان ما اشفى .
فاذا فتحت عينيها يعود الى جسمي شبابه ،
واذا تحدثت شعرت بالقوة تسري في جسدي ،
واذا عانقتها طردت عني كل الشرور .
لقد ذهبت عني ولم أرها منذ سبعة ايام » .

« يا ترى ما للحبيبة وما لي ؟
هل يجب علي الا اقول كلمة عن حبها ؟
لقد تركتني واقفاً عند باب دارها وهي تذهب وتجيء بداخله ،

ولم تقل لي : ادخل يا جميل . لقد كانت ساكتة هذه الليلة .
مررت الليلة على دارها ، ودققت على بابها .
ولم يفتح لي الباب أحد .
يا مزلاق الباب ، ان حظّي بين يديك ،
لانك انت حامي الحبيبة .
اسمعهم في الداخل يذبحون الثيران لك ،
لانك ، يا مزلاق ، مهمّ وصاحب سطوة
يذبحون ثوراً من اجل الباب
وعجلاً من اجل الترباس
واوزةً سمينة من اجل العتبة .
ويعطون الذهن للصنبة
اما صبي النجار فيعطونه احسن قطعة من الثور
كي يصنع لنا باباً من الغاب
يكون مزلاقه من القش .
فاذا حضر الحبيب في اي وقت
وجد بيتها مفتوحاً
ووجدها نائمة على سريرها وبجانبها خادمتها الجميلة ،
وتقول لي الخادمة :
ادخل ، البيت بيتك يا ابن الامير » .

لا شك ان المصريين القدماء كتبوا هذه الجمل شعراً منظوماً ، او على الاقل اكتفوا بالوزن في آخر كل جملة ، كما نصنع نحن في ازجالنا . ونحن نعرف ان الشاعر المصري القديم كان يبدأ كل جملة او مقطوعة بذات الكلمة التي بدأ بها غيرها من الجمل او المقطوعات السابقة ، وانه كان يعمد ايضاً الى الجناس اللفظي فيأتي بالالفاظ المتشابهة في اصواتها ذات المعاني المختلفة .

وبودّي ان يتصدى احد الموهوبين في الشعر او الزجل لوضع هذه الاغاني باسلوب شعري منظوم يحفظ لها معانيها ويجعل الاذن تستسيغ سماعها .